

المحور الثالث

منهج القرآن في شرح عقيدة التوحيد

وذلك بتبسيط العقيدة تأصيلاً وتدليلاً وسرد أقوال الكفار وشبهاتهم وتلقيح النبيين إحسان القول معهم في مقام الدعوة توطئة لمحاجاتهم في عقيدتهم .

وفيه عدة مسائل :-

- شرح معنى التوحيد باستبعاد تصور غيره
- الدعوة للنظر في توحيد المخلوقات لله
- نفور الكفار من عقيدة التوحيد استكباراً
- نفور الكفار من شخص النبي حسداً
- نفور الكفار من اليوم الآخر تحللاً من المسئولية
- إحسان القول للكفار في مقام الدعوة واجب
- محاجة المشركين في عقيدتهم

قال تعالى (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (40) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (41) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا تَتَعَوَّا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (42) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (43) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ خَلِيمًا غَفُورًا (44) وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (45) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتِ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَىٰ أَذْنَابِهِمْ نُفُورًا (46) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (47) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (48) وَقَالُوا أَنَدَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (49) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (51) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (52) وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا (53) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يُزَحِّكْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (54) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (55) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (56) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (57)

المسألة الأولى : شرح معنى التوحيد باستبعاد تصور غيره

قوله (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا) (40) ناقش القرآن الكريم هذه القضية في مواضع شتى، وجاءت مناقشتها في هذا الموضوع تحديداً تعقيباً وتأكيداً على ما سبق من تقرير توحيد الألوهية؛ فالكفار قد انتقصوا من جناب الحق جلّ وعلا بادعائهم البنوة له، واصطفائهم الملائكة ليكونوا بناتٍ له بهتاناً وزوراً، ولا جرم أن هذا الافتراء جرمٌ مشهود، وقولٌ عظيم.

فمن أشد تلبيس الشيطان على الكافرين إلقاء هذه الشبهة لهم بأن الملائكة بنات الله ، وأن عبادة الكفار للملائكة هي عبادة الله ، وهم في الحقيقة عبادة للشياطين ، قال تعالى (وَيَوْمَ يُخْشَرُهُمْ جَمِيعًا تَمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (40) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ) (سبا 41) ، وقال تعالى (إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا) (النساء 117) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا) (النساء 118) .

والقرآن حين تعرض لهذه الشبهة خاطب المنطق البشري بطريقة الاستفهام الاستنكاري ، هل يعقل أن تنسبون لله البنات وقد اختار لكم أن تنجبوا بنين وبنات ، يعني هل يعقل منكم أن تختاروا لله ما لا تختاروه لأنفسكم ؟ فيكون للبشر حظ من الملك أكثر من حظ الله لو ساع عقلا أن يتخذ ولدا ، (لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) (الزمر 4)

فحاشا لله أن يتخذ ولدا ، فاتخاذ الله الولد بطريق الشهوة ممتنع عن الله ، لأن في ذلك إبطال لحقه تعالى في الإيجاد والخلق من عدم ، دون حاجة للتوالد والتناسل ، وفي ذلك انتقاص من حق الله في التفرد والألوهية ولذلك يستنكر الله تعالى ذلك عليهم ، فيقول سبحانه (أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101) ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) (الأنعام 102)

قوله (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا) (41) نوع القرآن الكريم وجوه الدلالة وصنوف العبر، وسلك شتى طرق الاستدلال العقلي والوجداني؛ ليرد الناس إلى الفطرة السوية ويُبطل شبهاتهم في العقيدة.

يقول الشاعر :- لبيد بن ربيعة العامري :-

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ لَمْ يَأْتِنِي أَجْلِي ... حَتَّى كَسَانِي مِنَ الْإِسْلَامِ سِرْبَالَا

مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَمَصْرَفٍ عِبْرَةٌ ... يُصَرِّفُ اللَّهُ تِلْكَ الْأَمْثَالَا

غير أن هذا البيان المعجز والمصرف في القول من كل مثل لم يجد لدى صناديد الشرك إلا عتوّاً ونفوراً؛ ذلك أن دعوة التوحيد صادفت نفوساً متورمة بالكبر، مستسلمة لسطوة الهوى، حيث تحوّل "الهوى" في أعماقهم إلى إله متبوع يرفض الانقياد لرب العزة (أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا) (الفرقان 43)، من هنا رأى كل واحد منهم في إخلاص العبادة لله وحده تهديداً لامتيازاته المتهومة، وأنفةً كاذبة حجبت عنه أن يكون عبداً خالصاً لله.

ولما أحكم كتاب الله خناق الحجة عليهم، ونفى نفياً قاطعاً شبهة الشريك والولد، لجأ المشركون إلى حيلة "الوساطة" الباطلة للالتفاف على حقيقة التوحيد، فصنعوا لأنفسهم موقعاً وسطاً بين الإله الخالق وبين العابدين. ومن رحم هذا المبدأ الفاسد، شرعوا لأنفسهم حصانة دينية موهومة، وتطورت الوساطة حتى اتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله؛ فزعموا أن بركة الإله تنزل أولاً عبر أبنائه وسدنته، حتى آل الأمر بجهلهم إلى عبادة الملوك والأمراء والكبراء بحجة أنهم قنوات الاتصال بالمعبود. وهكذا تحول لجوؤهم للوسائط إلى ذريعة سياسية واجتماعية لتكريس الطبقة والاستعلاء البشري، فكلما زادهم القرآن بياناً وتنزيهاً لله، زادهم ذلك نفوراً وتشبهاً بأربابهم المزيفة حماية لعروشهم ومصالحهم الضيقة.

قوله (..وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا) (41) بين القرآن في موضع آخر كيف ينفرون من الموعظة كما تنفر الحمر من الأسد، فقال تعالى (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِيرِ مُّعْرِضِينَ) (49) كَأَنَّهُمْ خُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (المدثر/51)

وقد ألمح الشعراوي إلى سبب نفورهم وإعراضهم إنَّ سبب إعراض يهود المدينة عن الإسلام وجحودهم بنبوة محمد ﷺ رغم يقينهم بصدقه ومعرفتهم الدقيقة بأوصافه وزمن بعثته. يرجع إلى خوفهم من زوال "سلطتهم الزمنية"، وهي تلك السيادة الشاملة (العلمية، والاقتصادية، والعسكرية) القائمة على احتكار صياغة القوانين باسم الدين لتحقيق مصالحهم، تماماً كما فعل الكهنة عبر التاريخ، لكن لما أدرك الناس أن الكهنة يغيرون الأحكام بأهوائهم انصرفوا عن حكمهم ووضعوا لأنفسهم قوانين وضعية زمنا طويلا مثل قوانين جستنيان بين عامي 529 و534 ميلادية، بواسطة لجنة من الفقهاء برئاسة "تريونيان"؛ فلما جاء النبي محمد ﷺ بالرسالة أدركوا أن الرسالة الجديدة ستسلبهم هذه النفوذ والمكتسبات، آثروا الكفر بما حفاظاً على جاههم وسلطانهم¹.

في قوله (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا) تتجلى حجة قرآنية باهرة تدحض شبهة الشرك بمسلك عقلي رصين؛ إذ تقرر الآية -على سبيل الفرض الجدلي- أنه لو كان ثمة آلهة متعددة كما يزعمون، لكان مقتضى التنافس الفطري على السلطة أن يسعى كل منهم لمغالبة الآخر والوصول إلى العرش ظفراً بالملك والسيادة المطلقة، وهو ما يؤيده ماثور سعيد بن جبير في تفسير الآية بأنهم لا يتبعوا "أن ينزلوا ملكه"². ويلتقي هذا المعنى البديع مع قوله سبحانه (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) [المؤمنون/91-92]

¹ هذا موجز لتفسير الشعراوي ج 1 ص 5203 مع بعض التصرف والإضافة
² (تفسير ابن أبي حاتم ج 9 ص 163)

وأمام هذا الفرض، يبرز سؤال منطقي: هل يستقيم في العقل والواقع التقرب إلى آلهة شتى متنازعة لا بتغاء مرضاتها؟ إن في ذلك مشقة تحيل دون استقرار الضمير أو انتظام التكليف، وصور القرآن هذا الاضطراب أبلغ تصوير في قوله تعالى: **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** (الزمر/29)

وحين تتبدد حيرة التعدد، لا يتبقى أمام الفطرة السوية إلا الوجهة القاصدة لمالك العرش وحده، اتساقاً مع المآل الذي ذكره يوسف عليه السلام (يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَأَيْتَ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) (يوسف/39) فلو تناهى الأمر إلى الغلبة والكمال لصار العبء كله لله الواحد القهار الذي لا يدانيه شريك ولا يعلوه نظير. وإذا استقام هذا التوحيد المطلق، تماوت عقيدة المشركين في اتخاذ الوسائط؛ فلم يعد للملائكة ولا للمسيح مقام الإلهية ولا رتبة الشريك، بل هم عباد مكرمون خاضعون لجلاله، كما قرر الحق سبحانه (لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا) (المائدة/172)

قوله (..سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُقُولُونَ غُلُوبًا كَبِيرًا) (43) تدحض الآية افتراض أن الله شركاء له في ملكه، فمقام الألوهية منزه مطلقاً عن قواطع النقص وموجبات الشبيه، والخلائق جميعاً عبيد خاضعون لعظمته، لا يرتقي أحد منهم إلى مقام ربوبيته. ورغم أن منطقهم سقيم وتشبيهم مغلوط فإنهم يقولون بأن الولد لا يعلو والده، فكيف يشركونه في ملكه؛ إذ لا علو يفوق علو الله سبحانه، فهو المتعالي فوق كل شيء، والمنزه تفرّداً عن صاحبة والولد. بذلك يتفرد الله عز وجل وحده باستحقاق العبادة، فلا شريك له في ملكه، ولا ند له في سلطانه.

قال البقلاني (فلو جاز أن يكون الإله اثنين أو أكثر، فيريد أحدهما شيئاً ويريد الآخر ضده، فلا يخلو أن يتم مرادهما، أو يتم مراد أحدهما دون الآخر، ولا يجوز أن يتم مرادهما؛ لأن في إتمام مراد أحدهما عجز الآخر، لأنه تم ما لا يريد، وفي ذلك تعجيز لكل واحد منهما؛ لأنه تم ما لا يتم مراد واحد منهما، فقد ثبت عجزهما أيضاً. ومن يكون عاجزاً فليس بالإله، أو يتم مراد أحدهما دون الآخر؛ فالذي تم مراده هو الإله، والذي لم يتم عاجز ليس بالاله، فلم يكن إلا إله واحد)³.

وتتجلى بلاغة اللفظ القرآني في قوله تعالى (غُلُوبًا كَبِيرًا)؛ فبينما يتفاوت البشر في درجات رفعتهم، قيد الله عز وجل علوه بوصف "كبيراً" دون "أكبر". وفي هذا الاختيار الدقيق ملمح بياني عميق يذكره الإمام الشعراوي؛ (إذ إن صيغة "كبير" تفيد التفرد بالمطلق الذي يتضاءل أمامه كل ما سواه ليكون صغيراً، في حين أن لفظ "أكبر" قد يوهم بوجود كبراء آخرين يشاركونه صفة الكبير وإن فاقهم هو فيها)⁴. فسبحانه من تنزه بعلوه المطلق فلا يشاركه فيه أحد.

³ (الإنصاف للباقلاني ج 1 ص 9
⁴ (تفسير الشعراوي ج 1 ص 5205

المسألة الثانية : الدعوة للنظر في توحيد المخلوقات لله

قوله (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) (44) هذه دعوة للتأمل تضمنت في ذاتها رد على من ينسبون لله الولد ، فلو أنهم تأملوا في الكون لوجدوا الكائنات تنزه الله عن الولد وعن الشريك سبحانه .

إذ تتدفق من هذه الآية عدة معاني تعمق الشعور بالانتماء للكون ، وتشعر المسلم بواجبه نحو التناغم مع الوجود عندما يعلم أن كل ما حوله يُسَبِّحُ الله ، ويعلم كذلك أنه ليس وحيداً ولا معزولاً عندما يجتهد في التسبيح ويرى قومه يهجرون التسبيح ، فيتأكد له أنه جزء من منظومة كونية كبرى تسير باتجاه واحد وهو عبادة الله وخضوعها له. بهذا تتحقق فيه نظرة إيجابية للكون: تحول علاقة المسلم بالكون من حوله (من سماء وأرض وشجر ودواب) من مجرد علاقة استغلال مادي إلى علاقة مؤانسة وتأخٍ إيماني، لأن الجميع يشتركون في غاية واحدة وهي التسبيح.

وبهذا كذلك يترسخ التواضع والتحرر من الكبر في نفس المؤمن ، ويدرك حجمه الحقيقية عندما يدرك أن السماوات العظمى والأرض الشاسعة بكل ما فيها تسبح لله، فيتضاءل كبرياؤه الزائف، ويعرف قدر نفسه أمام عظمة الخلق وعظمة الخالق، فيثمر ذلك تواضعاً لله ولخلقه.

وبهذا كذلك تتحقق فيه رغبة شديدة للانقياد الاختياري : فالجمادات والكون يسبحون الله انقياداً وتسخييراً، فعندما يتربى المسلم على هذه المعاني الإيمانية يندفع هو كذلك للتسبيح وطاعة الله تعالى اختياراً وحباً، لئلا يكون النشاط الوحيد في هذا الكون المطيع.

وعندئذ يحصل إلى مرتبة اليقظة الروحية وديمومة المراقبة والحياء من الله: فيدرك أن كل ذرة في الكون تسبح الله يورث في نفس المسلم حياءً شديداً من أن يعصي الله في مكانٍ كل ما فيه يسبح بحمده ويخضع لأمره.

وعندئذ كذلك يحكي قلبه بذكر الله : فيدفعه شغفه للمنافسة إلى الاقتداء بالكون من حوله، فلا يغفل عن ذكر الله، بل يتحول تسبيحه المستمر إلى استجابة واعية لنداء الكون الصامت. مستشعرا العظمة الإلهية: فتسبيح هذا الكون الهائل بمن فيه وبمختلف لغاتهم وأحوالهم يعمق في نفس المسلم اليقين بقدرة الله وعظمته التي أحاطت بكل شيء، مما يورث في القلب تعظيماً وإجلالاً تاماً لله سبحانه وتعالى.

وينعكس ذلك كذلك على أخلاقه فيتنامى عنده الحس الجمالي والبيئي ، فيحترم البيئة والمخلوقات: لأن التربية العقائدية النابعة من هذه الآية تغرس في المسلم احترام الطبيعة والمخلوقات الأخرى؛ فالحيوان والشجر والجماد ليسوا مجرد أدوات، بل هم "مسبحون" لله، مما يمنع المسلم من العبث بهم أو إيذائهم أو تدمير البيئة بلا سبب مشروع.

قوله (وَأِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ...) (44) ويستدل على ذلك بانتظامها في الكون كما في قوله (وكل في فلك يسبحون) فالعلماء تحدثوا عن الاتزان البيئي ، والحركة الكونية في الفضاء ، والساعة البيولوجية لجسم الإنسان كل ذلك يدل على أن الكون كله مسخر لله ، فحري به التسبيح .

فمن أي ذر قال كنا عند النبي ﷺ فأخذ حصيات فسبحن في يده ثم وضعهن فخرسن ثم اخذهن فسبحن في يده ثم أعطاهن أبا بكر فسبحن في يده ثم أخذهن النبي ﷺ فسبحن في يده ثم وضعهن فخرسن ثم أعطاهن عثمان فسبحن في يده ثم أعطاهن عليا فوضعهن في يده فخرسن⁵ .

قوله (..وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ..) فالثبت العلم بالتسبيح بالجملة ، والمنفي العلم بكيفية التسبيح ، قال ابن عاشور (ولعل إثثار فعل "لا تَفْقَهُونَ" دون أن يقول: "لا تعلمون"، للإشارة إلى أن المنفي علم دقيق)⁶ .

يقول الشاعر لبيد بن الربيع : -

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ
وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ
أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاهِدُ
تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ
وَتَسْكِينَةٍ أَبَدًا شَاهِدُ

قوله (إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) (44) قال الزمخشري (حين لا يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وسوء نظركم وجهلكم بالتسبيح وشرككم)⁷.

المسألة الثالثة : نفور الكفار من عقيدة التوحيد استكبارا

قوله (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا) (45) (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا..) (46) بلغ اضطهاد المشركين للنبي ﷺ وأصحابه أنهم كانوا يؤذونه ويمنعونه قراءة القرآن وهو بينهم ، ولكن الله تعالى حجبهم عنهم ، فمكناهم من أن يتلو القرآن دون أن يتعرضوا له وأصحابه ، فالعناية الربانية حالت بينهم وبينه؛ فحجبته عن أبصارهم وهو يتلو كتاب ربه، وألقى على قلوبهم غشاوة تحول دون إدراك معانيه، وعلى آذانهم ثقلاً يمنعهم وعي مدلولاته؛ فيسمعون اللفظ ولا يفقهون المراد. ولو فقهوا ما تضمنته الآيات من تقريع لضلالهم وسفه عقولهم وتهكم بمعبوداتهم، ووصف لأهوال عذابهم في الآخرة، لاشتد حنقهم وتأجج عدوانهم، فكان هذا الحجب صيانة للنبي والمؤمنين من شرهم.

⁵ رواه الطبراني في المعجم الأوسط ج4 ص 245 وصححه الألباني في ظلال الجنة ج4 ص 245

⁶ التحرير والتنوير ج14 ص 92

⁷ الكشف ج3 ص 451

قال الشعراوي (يُرَوَّى أن أبا جهل ، وأبا سفيان ، وأبا هب ، وأم جميل كانوا يتابعون رسول الله ، ويتنصتون عليه وهو يقرأ القرآن ليروا ما يقول ، وليجدوا فرصة لإيذائه ﷺ ، فكان الحق سبحانه يصمُّ آذانهم عن سماع القرآن ، فالرسول يقرأ وهم لا يسمعون شيئاً ، فينصرفون عنه بغیظهم)⁸ .

وهكذا لما اشتدت الفتن وتكالت المحن، جاء اللطف الإلهي ليصنع من الضعف قوة، ومن الحصار نجاة ، فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت : لما نزلت (تبت يدا أبي هب) أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة وفي يدها فهر وهي تقول : (مذمما أبينا * ودينه قلينا * وأمره عصينا) والني ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول الله قد أقبلت وأنا أخاف أن تراك فقال رسول الله ﷺ : إنها لن تراني وقرأنا فاعتصم به كما قال وقرأ (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستورا) فوقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله ﷺ فقالت : يا أبا بكر إني أخبرت أن صاحبك هجاني فقال : لا ورب هذا البيت ما هجاك فقلت وهي تقول : قد علمت قريش أني بنت سيدها)⁹ .

قوله (..وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا..) (46) لفظ "أكنة"، جمع "كنان" وهو ما يستر الشيء ويغطيه ويكنه، ولفظ "وقر" الوقر : ثقل في الأذن أو دهاب السمع كُله)¹⁰ .

وفي هذا السياق، نسب الله عز وجل الفقه إلى القلب -رغم أن الكلام يمر عبر الأذان أولاً- ليدل على وشيجة وثيقة وصلة عميقة بين السمع والفؤاد؛ فمن أحسن الاستماع بوعي، نفذ الكلام إلى سويداء قلبه، ومن أعرض ولم يحسن السماع، انحجب التأثير عن جوارحه. فالآذان هي مجاري العلم ومداخله، والقلب هو موطن معالجته بالفهم والتدبر. ومن هنا، فإن المشاعر الصادقة التي يملؤها الشوق إلى لقاء الله تتفاعل تفاعلاً حياً مع كلامه، ولذلك قال رسول الله ﷺ (خَصَلَتَانِ لَا تَجْتَمِعَانِ فِي مُنَافِقٍ حُسْنُ سَمْتٍ وَلَا فِقْهٌ فِي الدِّينِ)¹¹ .

وعلى النقيض من ذلك، فإن المشاعر التي دتسها حب الدنيا، واستبد بها كره لقاء الله، عُوقبت بإغلاق منافذ استقبال الهدى، وتعطيل آلة الفهم والتدبر؛ جزاءً وفاقاً لكرهيتهم لقاء ربه، فكروا لقاءهم، كما جاء في الحديث الشريف، قال رسول الله ﷺ (مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ)¹² .

وقد أفاض الإمام الشنقيطي في بيان هذا المعنى مستنداً إلى التحقيق؛ حيث قال: (والظاهر أن الوقر المذكور على سبيل التشبيه الوقر الحسي؛ لأن الوقر المعنوي يشبه الوقر الحسي والوقر المجعول على آذانهم بالفعل، هو الوقر المعنوي المانع من سماع الحق فقط، دون سماع غيره، والعلم عند الله تعالى)¹³

(8) تفسير الشعراوي

(9) رواه الحاكم في المستدرک ج2 ص393 رقم 3376 وصححه الألباني : صحيح السيرة النبوية ج1 ص 138

(10) القاموس المحيط ج1 ص 635 لسان العرب ج5 ص 289

(11) رواه الترمذي ج9 ص 298 رقم 2608 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج1 ص 561 رقم 278

(12) رواه البخاري ج20 ص 165 رقم 6026

(13) أعضاء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج6 ص 179

ثم بيّن -رحمه الله- علة هذا الحجاب وسر هذا الحرمان بقوله: (تلك الموانع التي يجعلها على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، كالحتم والطبع والغشاوة والأكنة، ونحو ذلك . إنما جعلها عليهم جزاء وفاقاً لما بادروا إليه من الكفر وتكذيب الرسل باختيارهم، فأزاع الله قلوبهم بالطبع والأكنة ونحو ذلك، جزاء على كفرهم، فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: (بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ) [النساء/155]، أي بسبب كفرهم، وهو نص قرآني صريح في أن كفرهم السابق هو سبب الطبع على قلوبهم. وقوله: (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) [الصف/5] .

فعن جابر بن عبد الله قال : اجتمعت قريش يوماً فقالوا انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر ، فليأت هذا الرجل الذي قد فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا، فليكلمه ، ولينظر ماذا يرد عليه ؟ فقالوا ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة فقالوا يا أبا الوليد فأتاه عتبة فقال يا محمد أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ﷺ ثم قال أنت خير أم عبد المطلب ؟

فسكت رسول الله ﷺ فقال فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت وإن كنت تزعم إنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك، إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومه منك فرقت جماعتنا وشتت أمرنا وعبت ديننا وفضحتنا في العرب حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحرا وأن في قريش كاهنا، والله ما ننتظر إلا مثل صحيحة الجبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى ، أيها الرجل إن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجنك عشرا

فقال رسول الله ﷺ فرغت؟ قال نعم فقال رسول الله ﷺ بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم حتى بلغ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود

فقال عتبة حسبك حسبك ما عندك غير هذا ؟ قال لا فرجع إلى قريش فقالوا ما وراءك فقال ما تركت شيئا أرى أن تكلمونه إلا قد كلمته قالوا فهل أجابك قال نعم قال لا والذي نصبها بنية ما فهمت شيئا مما قال غير أنه قال أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود قالوا ويلك يكلمك الرجل بالعربية لا تدري ما قال قال لا والله ما فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة¹⁴.

قوله (..وَإِذَا ذُكِّرْتُ بِرَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَىٰ أَذْبَانِهِمْ يُفْخَرُونَ) (46) بليغ الدلالة على أنهم يتكبرون عن سماع الحق ، ولا يقبلون الانفتاح على من يخالفهم ، أي أنهم عطلوا حواسهم بأنفسهم استكبارا السمع والأبصار والأفئدة ، وهذا هو عين الجهل وضيق الأفق النابع من الكبر والعظمة التي هما لله وحده سبحانه ، فالكبرياء والعظمة لله وحده ، ولو أنهم تجردوا مما هم فيه من الكبر والأنفة واستمعوا لكلام الحق لانشرحت صدورهم له ، ولا هتدوا للإسلام .

روي في كنز العمال عن عمر بن الخطاب في قوله تعالى (وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ) الآية قال: "أقبلت قريش إلى النبي ﷺ ، فقال لهم: ما يمنعكم من الإسلام فتسودوا العرب ؟ فقالوا يا محمد: ما نفقه ما تقول، ولا نسمعه ، وإن على قلوبنا لغلفا، قال وأخذ أبو جهل ثوبا فمد فيما بينه وبين النبي ﷺ ، فقال يا محمد: قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه، وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب، فقال لهم النبي ﷺ : أدعوكم إلى خصلتين: أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأني رسول الله ، فلما سمعوا شهادة أن لا إله إلا الله، ولوا على أديبارهم نفورا وقالوا: (أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) وقال بعضهم لبعض (امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ) يعنون النصرانية (إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا) وهبط جبريل، وقال يا محمد: إن الله يقرئك السلام، ويقول: أليس يزعم هؤلاء أن على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا فليس يسمعون قولك، كيف وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أديبارهم نفورا، لو كان كما زعموا لم ينفروا، ولكنهم كاذبون يسمعون ولا ينتفعون بذلك كراهية له" قال: فلما كان من الغد أقبل منهم سبعون رجلا إلى النبي ﷺ فقالوا: يا محمد أعرض علينا الإسلام، فلما عرض عليهم الإسلام أسلموا من آخرهم، فتبسم منهم النبي ﷺ ، ثم قال "الحمد لله، بالأمس ترعمون أن على قلوبكم غلفا، وقلوبكم أكنة مما ندعوكم إليه، وفي آذانكم وقرا وأصباحكم اليوم مسلمين" ، فقالوا يا رسول الله كذبنا والله بالأمس، لو كان كذلك ما اهتدينا أبدا ولكن الله الصادق، والعباد الكاذبون عليه، وهو الغني ونحن الفقراء"¹⁵.

وقد بين سيد قطب سبب هذا النفور فقال (نفورا من كلمة التوحيد التي تهدد وضعهم الاجتماعي القائم على أوهام الوثنية وتقاليده الجاهلية ، وإلا فقد كان كبراء قريش أذكى من أن يخفى عليهم ما في عقائدهم من تحافت ، وما في الإسلام من تماسك ، وأعرف بالقول من أن يغيب عنهم ما في القرآن من سمو وارتفاع وامتياز ، وهم الذين لم يكونوا يملكون أنفسهم من الاستماع إليه والتأثر به ، على شدة ما يمانعون قلوبهم ويدافعونها! ولقد كانت الفطرة تدفعهم إلى التسمع والتأثر؛ والكبرياء تدفعهم عن التسليم والإذعان؛ فيطلقون التهم على الرسول يعتذرون بها عن المكابرة والعناد).

المسألة الرابعة : نفور الكفار من شخص النبي حسدا

قوله (لَنْ نَعْلَمَ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ...) (47) قال البيضاوي (بسببه ولأجله من الهزء بك وبالقرآن)¹⁶ ، قال الألوسي (أي ملتبسين به من اللغو والاستخفاف والهزء بك وبالقرآن)¹⁷ ، فالله أعلم بحال المشركين وهم يستمعون لقراءة النبي ﷺ القرآن ، فمنهم من يفعل ذلك بقصد خبيث حيث لم يكونوا يستمعون ليتدبروا أو يهتدوا، بل كانوا يستمعون بقصد الاستهزاء، والسخرية، والتنفير منه، لكن هذا لا يمنع أن بعضهم كان يستمع للنبي ﷺ بقصد الفضول والشغف لمعرفة ما يقول ، ولعل هذا النوع من الناس هو الذي آمن به بعد ذلك .

¹⁵ (كنز العمال في سنن الأفعال والأفعال ج2 ص 495 رقم 4586

¹⁶ (تفسير البيضاوي ج3 ص 428

¹⁷ (تفسير الألوسي ج10 ص 477

لكن الأغلبية والأكثرية كانوا يستمعون بقصد الاستهزاء ، فهم يستمعون بآلة السماع وهي الأذن فلا يتجاوز الكلام صنوان الأذن ، ولا يصل إلى القلب ، بل قلوبهم في أكنة مما يقول ، والتقدير نحن أعلم بالشيء الذي يستمعون به ، أهي آذانهم أم قلوبهم ، بمعنى نحن أعلم بالسبب الذي لأجله يستمعون إليه ، لأجل الاستفادة أم لأجل اللغو والتكذيب

وقد تعددت توجيهات المفسرين والنحاة في وظيفة الباء وعلاقتها بالاستماع والأذن بناءً على وجهين مشهورين

-:

الوجه الأول (الباء للسببية) ، و"ما" الموصولية وتعني اللغو أو السخرية.

فيكون المعنى: نحن أعلم بالحال والهدف الذي بسبب ولأجل الاستهزاء به يستمعون إلى القرآن. وهنا لا يكون للباء علاقة مباشرة بآلة الأذن، بل بـ "الغاية" من استماعهم (وهو الصد والتكذيب)

الوجه الثاني (الباء للآلة) ، وهنا قد تظهر علاقتها بالأذن ، فالأذن هي آلة السمع، وليس الفهم

فيكون التقدير: يستمعون بآذانهم، لكنهم لا يتدبرون ولا يعون.

أما إن كانت آلة الاستماع القلب فهذا كناية عن الفهم والتدبر ، وهذا حال من أسلم منهم بعد ذلك .

وقال سفيان بن عيينة (أول العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر؛ فإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام بنية صادقة على ما يجب الله أفهمه كما يجب، وجعل له في قلبه نورا)¹⁸.

قوله (... إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى...) (47) يدل لفظ "يستمعون" على كثرة السماع ، فهم يكررون محاولاتهم في الاستماع للنبي وهو يتحدث عن الله ويقرأ القرآن ، ولا يبدون ذلك للناس في العلن ، وهذا نابع من كبرهم وظلمهم لأنفسهم ، وكثير منهم يفعل ذلك ، فما منع أبا طالب من الإيمان بدعوة ابن أخيه محمد ﷺ إلا مخافة تعيير قومه له ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَمِيهِ (قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَشْهَدُ لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ لَوْلَا أَنْ تُعَيِّرَنِي قُرَيْشٌ يَقُولُونَ إِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ الْجَزَعُ لَأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ)¹⁹.

فكثير ممن رفض الدعوة الإسلامية كان معجبا بها ، ويود لو كان مسلما ، ولكن الذي منعه من إعلان هذا الإعجاب وترجمته بدخول دين الإسلام إما حرصا على مكانته الاجتماعية بين قومه أو مكانته المالية أو الأدبية .. الخ ، ولو أنه تخلص من هذه العوائق لاستمع لدعوة الإسلام وقلبه غير مشغول بغير ذلك .

¹⁸ (تفسير القرطبي ج 11 ص 176

¹⁹ (رواه مسلم ج 1 ص 123

فالقرآن أوضح أنهم وهم يستمعون القرآن يتناجون مع بعضهم البعض ، ويحدث كل واحد منهم نفسه عن سبب نفوره من الدعوة الإسلامية ، قال البخاري (مُصَدِّرٌ مِنْ نَاجِيَةٍ فَوَصَّفَهُمْ بِهَا وَالْمَعْنَى يَتَنَاجَوْنَ)²⁰، ما يدل على أنهم منشغلين بنجواهم عن الاستماع بحق ، مما يخل من الاستفادة ويشتت الانتباه والتركيز .

فجملته (وَإِذْ هُمْ نَجْوَى) جملة اسمية في محل نصب حال، والسر البلاغي هنا أن "الاستماع" المنسوب إليهم ليس استماع تدبّر واهتداء، بل هو استماع تهكّم، أو استماع تجسس للبحث عن مطعن. وهم في أثناء هذا الاستماع (الظاهري) متلبسون بحال النجوى والتشاور في كيدهم. والمعنى: نحن أعلم بالهيئة والوجه الذي يستمعون به (وهو الهزء والتكذيب (في حال كونهم متناجين فيما بينهم. فالحال هنا تكشف عن تناقض ظاهريهم مع باطنهم؛ يظهرهم بصورة المستمعين، وقلوبهم وأسمعتهم مشغولة بالنجوى والإعراض.

السياق لا يتعارض مع الحالية؛ وإن كان الترجيح أنه للظرفية ، فالآية إما أن تصوّر (تناقضهم في المجلس الواحد) يستمعون بأبدانهم وهم نجوى بقلوبهم وإشاراتهم، أو تصوّر (حالهم التقلبية) تارة يستمعون وتارة يخلون للنجوى)، وفي كلا الوجهين، جاء التعبير القرآني بـ "إذ" مرتين ليحيط بكل تقلبات كيدهم وأزمئتهم .

والواجب على أهل الإيمان أن ينصتوا عند سماع القرآن لقوله تعالى (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) [الأعراف:204] ، فعن وهب بن منبه أنه قال: (من أدب الاستماع سكون الجوارح وغض البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور العقل، والعزم على العمل، وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى؛ وهو أن يكف العبد جوارحه، ولا يشغلها، فيشتغل قلبه عما يسمع، ويغض طرفه فلا يلهو قلبه بما يرى، ويحصر عقله فلا يحدث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه، ويعزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم)²¹

ولهذا فإن تلبسهم بالنجوى حال القراءة مذموم ، ولو أنهم استمعوا وأنصتوا تأدبا لكان ذلك خيرا لهم ، لأنه يجلب لهم الرحمة ، أما النجوى أثناء سماع الذكر فلا بد وأن تقول إلى سوء الفهم ثم إلى التهكم والسخرية

قوله (..) **إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَشْحُورًا** (47) إذ يستمعون للنبي ثم هم بعد ذلك يفترون عليه الفرية ليصرفوا الناس عن سماعه ، أي أنهم يلجئون للطعن في شخص النبي ﷺ لتنفير الناس منه ، فهذا ظالم ولا شك

ورغم فإن بعضهم لا يزال منجذبا لحلاوة تلاوته ، وحسن صوته ، منبهرا بخشوع المسلمين في الصلاة وتضرعهم وإحاحهم في الدعاء ، مما يحمل البعض منهم لأن يظن أنه مسحور لأجل تلك الهيئة من الخشوع لله ، ولأجل ذلك يكررون السماع إليه ، رغم أن نفوسهم تأبى ذلك استكبارا ، فيظنون أنه سحرهم بسحره ، وهذه الشبهة تنمحي بسرعة عندما يرون حقيقة الأمر ، لأن تأثير السحر وقتي ، بينما تهذيب الأخلاق والنفوس وتركيتها عند المسلمين دائم وغير موقوت .

²⁰ (رواه البخاري ج19 ص 341

²¹ (تفسير القرطبي ج11 ص 176

يقول النبي ﷺ (إن من البيان لسحراً)²² وهذا يعني أن مجرد إيصال الكلام بأسلوب واضح البيان سلس للفهم يحقق الإقناع الكامل والرضاء التام ، فيصير الراضى للكلام بعد سماعه وقد قبله ورضى به ، فكأنه سُحر بهذا الكلام ، وليس بسحر حقيقي ، ولذلك قال لهم النبي ﷺ (بالأمس تزعمون أن على قلوبكم غلفاً، وقلوبكم أكنة مما ندعوكم إليه، وفي آذانكم وقر وأصباحتم اليوم مسلمين)²³.

فبالرغم من أن النتيجة المترتبة على ذلك سلبية إلا أن ثمة جانب إيجابي لتكرار محاولات الاستماع الصادرة منهم ، فهي تدل على معنى صحي ، وتدلل على اقتراحهم من الإسلام ، فقلوه (يستمعون) أكد من قوله (يسمعون) دلالة على حسن الاستماع .

قوله (انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا) (48) تسترعي الآية الكريمة التأمل في جحود المشركين وموقفهم من النبوة؛ إذ استبدلوا بالتأثر الإيجابي بالقرآن الكريم نكوصاً وإعراضاً، مدفوعين بخللٍ منهجيٍّ في الاستدلال، وعمى بصيرٍ قَطَعَ عليهم سُبُل الهداية. فبسبب كبرهم وعنادهم، أبوا الإذعان لصدق الرسول ﷺ والاستسلام لدعوته بجوارحهم، فتاهت بهم السُّبُل عن الحق، وضلُّوا في متاهات الجدل بالباطل .

فاحتاروا في وصف رسول الله ﷺ ما بين متهم له بالكذب إلى متهم له بالسحر وآخر بالجنون ورابع يتهمه بالكهانة ، فلم يتفقوا على وصف معين ، قال تعالى (فَدَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ) (الطور 29-30) .

يرى الشيخ محمد متولي الشعراوي أن حيرة الكفار في وصف الرسول ﷺ وتناقض اتهاماتهم له بين (ساحر، ومجنون، وشاعر، وكاهن) هي دليل وبرهان قاطع على صدق نبوته وعجزهم الكامل أمام معجزته، واعترافاً ضمناً وعجزاً صارخاً أمام جلال شخصه وعظمة القرآن الكريم، حيث لم تسعفهم لغتهم ولا عقولهم في العثور على تهمة واحدة منطقية تصمد أمام سطوع الحق .

صيغة الأمر " انْظُرْ " تكليف بالتدبر، والتأمل، والاعتبار، وتتضمن الدلالات التالية:-

- التكليف بالوعي والفهم الدقيق لمخططات الخصوم : فهو أمر يُكلف النبي ﷺ (والمصلحين من بعده) بمعاينة وفحص الحجج والاثباتات التي يوجهها أهل الباطل (كقولهم عن النبي: "ساحر"، "شاعر"، "مجنون"). التكليف هنا هو دراسة وفهم عقلية الطرف الآخر لمعرفة كيف يتخبطون في اختلاق الأكاذيب.
- التكليف بالثبات والصبر (التسلية والتعزية) : إذ يأتي الأمر في سياق المواساة؛ فالله تعالى يقول لنبيه: تأمل كيف تُناقض أقوالهم بعضها بعضاً. هذا التوجيه يُكلف الرسول ﷺ بأن يطمئن قلبه، بأن حجج الباطل تناقض بعضها بعضاً ، فلا تؤثر هذه الأمثال والافتراءات، إلا فيمن يستحق الضلالة ، فتعارضها مع بعض برهان بطلانها.

²² (رواه البخاري ج18 ص 61 رقم 5325)
²³ (كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ج2 ص 495 رقم 4586)

- التكليف ببيان العجز والحجة .
- هذا التكليف يدفع المسلم إلى استخدام العقل والمنطق لإظهار تناقض الباطل، لإظهار عجزه أمام الناس وبيان أنه يتخبط في ضرب أمثال متناقضة واهية.
- فالأمر "أنظر" هو تكليف به التعجب والاعتبار وتدبر حكمة الله في خذلان أهل الباطل، وتحصين النفس وعياً وفكراً ضد الشبهات عبر كشف ثافتها.

المسألة الخامسة : نفور الكفار من اليوم الآخر تحللاً من المسئولية

قوله (وَقَالُوا أَنَدَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا) (49) ذكر القرآن كيف أن الكفار عجزوا عن الطعن في الذات الإلهية بنسبة النقص لله ، وعجزوا عن الطعن في شخص النبي ﷺ باتهامه بصفات متناقضة ، فانتقلوا من ذلك إلى الانتقاص من العقيدة ذاتها ، فأنكروا البعث والإحياء بعد الموت ، فأشاعوه بين الناس استنكارهم أن تعود عظام الموتى بعد أن بليت وأضحت رفاتاً إلى الحياة مرة أخرى .

ففي ظنهم أنهم لن يحاسبوا على ما فعلوا ، توهموا أن أفعالهم ستمر دون عقاب، واختزلوا الحياة في عبثية مطلقة؛ مجرد ساعات تنقضي بلا رقيب ولا حسيب. غير أن العدالة الإلهية تأتي أن يتجرع المظلومون مرارة البغي ثم يمضي الظالمون بلا قصاص؛ فحاشا لله أن يُضيع حقاً، بل لا بد من بعث وحساب. وإنما أوقعهم في هذا الوهم طول أمد استدراجهم في الدنيا، فقد استطالت بهم الحياة دون أن يحاسبهم أحد عما اقترفته أيديهم، غافلين عن أن الدنيا—مهما امتدت أيامها وعظم طغيانها—إنما هي ميدان اختبار وابتلاء، وليست دار مستقر حساب وجزاء.

قوله (قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا²⁴ (50) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) رد القرآن على إنكار الكافرين البعث بالكشف عن السبب الحقيقي لهذا الإنكار ، بأن هؤلاء المنكرين هم في أنفسهم مستكبرون ، لأنهم يظنون أنه عصي على الله أن يعيد مادة الطين التي خلقوا منها إلى لحم وعظم ودم مرة أخرى بعد أن تتحلل أجسادهم لمواد أولية ، وكأن الجسد حين يصير تراباً يتعذر أن يعود لحماً ، ولذلك خاطبهم الله

24 (تناول الكيميائي جمال عبد الناصر الجنائني، مدير موقع "القرآن والعلم"، إعجازاً علمياً في القرآن الكريم يؤكد توافق النص القرآني مع العلم الحديث في ما يُعرف بعلم المتحجرات.(Paleontology) فعلمياً، لا يمكن للمواد العضوية في العظام أن تبقى ملايين السنين، بل لابد وأن تتحلل - و الآية القرآنية تشير إلى قدرة الله على بعث الموتى حتى لو تحولوا من صورتهم العضوية (عظام ورفات) إلى صورة غير عضوية (حجارة أو حديد) . إذن كيف تحولت العظام إلى حجارة أو حديد؟

إذ تتحلل المواد العضوية وتستبدل معادن الأرض المركبات الكيميائية في البقايا الصلبة (كالأسنان والعظام)، وتنقسم هذه المتحجرات إلى نوعين حسب المعدن البديل:

1- البقايا المتحولة إلى حجارة :تحدث عندما تُستبدل بقايا الكائن الحي بمعادن مثل السليكا أو الكالسيت، وهي المكونات الأساسية لمعظم أنواع الصخور، فيتشكل نموذج صخري كامل.

2- البقايا المتحولة إلى حديد :تحدث عندما تُستبدل الخلايا بمعادن حديدية (مثل البيريت)، وهو ما يتوافق تماماً مع اللفظ القرآني فما نراه اليوم من متحجرات الديناصورات ليس هياكل عظمية حقيقية، بل نماذج صخرية تشكلت بعد تحلل العظام وبقاء أثرها في الحجارة. ومن خلال هذه الصخور، يستطيع العلماء تحديد عمر المتحجرات عبر تقنية التأريخ الإشعاعي.(Radiometric dating)

تعالى بأنهم مهما استكبروا بمادة خلقتهم ، ولو كانت مادة خلقتهم غير الطين ، فالله قادر على أن تبلى ثم يركبها مرة أخرى كما لو كانت حجارة أو حديدا أو مادة أخرى يظنون جميعا تعذر إعادة تركيبها وتشكيلها مرة أخرى

وقد احتجوا لإنكارهم طول مكث الجثث لمئات بل آلاف السنين في التربة ، ولم تعاد للحياة مرة أخرى ، لكنهم أضعف من أن يفهموا ذلك ، فهم يعلمون أنهم مخلوقون من طين ، **والطين أسرع مادة للتشكل** ، به تبنى الأسوار والبيوت والتمائيل ، **فعلام التكرار** ، والإنسان بعد موته يتحلل إلى مادته الأولية ، أليس الله خلقه وأحسن صورته بقادر على تشكيله مرة أخرى كما بدأه من عدم .



حفرة لهيكل عظمي لسمكة



حفرة لصدفة تحللت واستبدلت بمعادن الحديد



بقايا متحجرة لهيكل عظمي بشري

إن مسألة إعادة تشكيل الإنسان من مواد أولية تعدّ أمراً يسيراً بالنظر إلى قدرة الله المطلقة؛ فالذي أوجد البشر وخلقهم أول مرة من العدم، قادرٌ سبحانه على إعادتهم وبعثهم بعد فنائهم. وكما نفخ الروح في المضغة المخلّقة داخل بطن الأم لتتحول إلى جنين نابض بالحياة، هو قادرٌ كذلك على إرسال الروح في الجسد من جديد ليعود حياً؛ فذلك لا يعجزه ولا يعييه، ومن بدأ الخلق أول مرة هو وحده القادر على إعادته بعثاً ونشوراً .

قال ابن القيم أي (أنكم لو كنتم من حجارة أو حديد أو خلق أكبر منهما لكان - الله - قادرا على أن يفيكم ويحيل ذواتكم وينقلها من حال إلى حال ، فمن قدر على التصرف في هذه الأجسام مع شدتها وصلابتها بالإفناء والإحالة ونقلها من حال إلى حال فما يعجزه عن التصرف فيما هو دونها بإفنائها وإحالتها ونقله من حال إلى حال ، فأخبر سبحانه أنهم يسألون سؤالا آخر بقولهم من يعيدنا إذا استحالنا أجسامنا وفنيت فأجابهم بقوله قل الذي فطركم أول ، وهذا الجواب نظير جواب قول السائل من يحيي العظام وهي رميم)²⁵.

قوله (فَسَيُنْعِضُونَ²⁶ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا)⁽⁵¹⁾ عن ابن عباس (فَسَيُنْعِضُونَ) (يُحَرِّكُونَ رُءُوسَهُمْ مِنْ أَعْلَى إِلَى أَسْفَلٍ وَمِنْ أَسْفَلٍ إِلَى أَعْلَى حَرَكَةً اسْتِهْزَاءً)²⁸.

²⁵ (الصواعق المرسلة ج2 ص 478
²⁶ (قال ابن كثير : الإنعاض هو: التحرك من أسفل إلى أعلى، أو من أعلى إلى أسفل، ومنه قيل للظلم -وهو ولد النعامة - : نغضا؛ لأنه إذا مشى عجل في مشيته وحرك رأسه. تفسير ابن كثير ج5 ص 85
²⁷ (تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 165 والطبري ج17 ص 467
²⁸ (تفسير أسعد حومد ج1 ص 281 ، تفسير التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ج1 ص 900



قال ابن تيمية (فلما أخذتهم الحجة ولزمهم حكمها ولم يجدوا عنها معدلا انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به كما يتعلل المقطوع بالحجاج بمثل ذلك وهو قولهم متى هو؟ فأجيبوا بقوله (عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا)²⁹ .

إذ يهز منكرو البعث رؤوسهم استهزاء³⁰ وتعجباً³¹ كلما طُرحت عليهم هذه المسألة، في إشارة واضحة إلى عجز ألسنتهم عن إقرار الحقيقة، وفشلهم في مواجهة الحجة بالحجة، لا سيما بعد أن دُحضت افتراءاتهم بالدليل القاطع على قدرة الله الخالق الذي أوجد الخلق أول مرة . وللاإفلات من هذا المأزق ، يعتمد هؤلاء إلى تحويل مسار القضية؛ فبدلاً من مناقشة إمكانية تحقق البعث عقلاً ومنطقاً، ينتقلون إلى التساؤل عن مواعده ووقت حصوله . وينبع هذا التهرب من رغبتهم في إرجاء الحديث عن هذا اليوم المرتقب، ظناً منهم أن بينهم وبين الآخرة أمداً بعيداً يتيح لهم الاستمرار في لهوهم وعبثهم باطلاً، غافلين عن حقيقة أن هذا اليوم قريب جداً، ولكنهم لا يعلمون.

قوله (يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا) (52) يدعو الله الخلاق جميعاً يوم القيامة لتتزوج أرواحهم مع أجسادهم ، فهذا يوم البعث ، وما دعوته إلا صيحة واحدة ، (وَتَفْخُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ) (51) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ) (53)

فالأرض تنشق أول ما تنشق عن الأنبياء ، فيسبحون بحمد ربهم عندما يبعثون ، يقول النبي ﷺ (النَّاسُ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى أَخِيذُ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ فَلَا أَدْرِي أَكَانَ فَيَمَنُ صَعَقَ أَمْ حُوسِبَ بِصَعَقَةِ الْأُولَى)³² ، ثم تنشق الأرض عن الناس أجمعين فينسلون منها ، وعندئذ يتذكرون أيام الدنيا ، قال قتادة (تحقرت الدنيا في أنفسهم وقلّت، حين عاينوا يوم القيامة)³³، فعندئذ يعلمون أن طول اليوم هو محل السؤال ، وليس موعد اقتراب القيامة ، فقد عاينوه اليوم ، وكان الواجب عليهم بدلا من السؤال عن مواعده ، السؤال عن طوله ، فذاك السؤال كان أحق باهتمامهم والعمل ، في حين أن المدة التي قضوها في الدنيا قصيرة مقارنة بطول يوم القيامة ، فحظهم من الدنيا وما مكثوا فيها قليل مقارنة بطول مكثهم يوم الحساب .

لا سيما وأن التفاوت بين الناس في المكث يوم الحساب شديد بحسب أعمالهم ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ يَسْبِقُونَ الْأَغْنِيَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الْجَنَّةِ بَارْبَعِينَ خَرِيفًا)³⁴

²⁹ (الصواعق المرسلة ج2 ص 478)

³⁰ (ذكر ابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن عباس هذا القول ج9 ص 165 / وانظر تفسير مجاهد ج2 ص 343 رقم 834)

³¹ (تفسير السعدي ج1 ص 460)

³² (رواه البخاري ج8 ص 258 رقم 2235)

³³ (تفسير الطبري ج17 ص 469)

³⁴ (رواه ابن حبان في صحيحه ج2 ص 453 رقم 678 وصححه الألباني : صحيح كنوز السنة ج1 ص 206)

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَتَعْلَمُ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي؟ قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَقَالَ: الْمَاهِجُرُونَ يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ وَيَسْتَفْتِحُونَ، فَيَقُولُ لَهُمُ الْحَزَنَةُ: أَوَقَدْ حُوسِبْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: بَأَيِّ شَيْءٍ نَحْسَبُ، وَأَمَّا كَانَتْ أَسْيَافُنَا عَلَى عَوَاتِقِنَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى مِتْنَا عَلَى ذَلِكَ! قَالَ: فَيُفْتَحَ لَهُمْ، فَيَقِيلُونَ فِيهِ أَرْبَعِينَ عَامًا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهَا النَّاسُ)³⁵

المسألة السادسة : إحسان القول للكفار في مقام الدعوة واجب

قوله (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا) (53) لما عجز المشركون عن مجابهة الحجة بالحجة والدفاع عن عقيدتهم الباطلة إزاء ثبات المؤمنين على عقيدتهم ازداد - عندئذ - اضطهاد المشركين للنبي ﷺ وتناولوا علي أصحابه بالإيذاء ، فكاد الصحابة أن يثاروا لأنفسهم ، وتلك هي خطة الشيطان أن يوقع بينهم بدافع مراعاة حظوظ أنفسهم فيثار كل واحد لنفسهم حتى تضيع قضية الإيمان بالله تعالى التي لا يدافع عنها إلا من تجرد عن حظ نفسه ، يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ (إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيْسَأَنَّ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ فِي التَّخْرِيشِ بَيْنَهُمْ)³⁶، وذلك (بتفويض بعضهم على بعض)³⁷، ولذلك صبرهم الحق سبحانه بهذه الآية ، وأمرهم بأن يقولوا التي هي أحسن ، وأن يتنبهوا لمصائد الشيطان .

قال الألوسي في قوله (يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ) أي (يفسد ويهيج الشر بين المؤمنين والمشركين بالمخاشنة فلعل ذلك يؤدي إلى تأكيد العناد وتمادي الفساد)³⁸، ولذلك أكد على عداوته للإنسان ، فهم إن طاعوه وثأروا لأنفسهم لم يبق لهم وجه لأن يخاطبوا قومهم في مقام الدعوة والتبليغ عن الله تعالى ، نظير ذلك قوله (قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (البقرة/14) ، إذن دائرة عمل الشيطان في هذه المرحلة هي استغلال قلة صبر لدى بعض الدعاة إلى الله على الناس ، فيجعلهم ينتقمون لأنفسهم ليفسد أهليتهم للبلاغ عن الله ورسوله .

فعن سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَغَضِبَ أَحَدُهُمَا فَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى انْتَفَحَ وَجْهُهُ وَتَغَيَّرَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ الَّذِي يَجِدُ فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ فَأَخْبَرَهُ يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ تَعَوَّذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ فَقَالَ أَتَرَى بِي بَأْسٌ أَمْجُنُونُ أَنَا أَذْهَبُ)³⁹.

قوله (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأْ يُرْسِلْكُمْ أَوْ إِنَّ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا) (54) تلطيف لما يصيب صحابة رسول الله ﷺ ومن تبعهم من الأذى الصادر عن المكذبين ، بإخبارهم أن هؤلاء الذي يصدونهم عن السبيل اليوم قد يدخلون في رحمة الله تعالى غدا ، فالله أعلم بحالهم ، فقد يعاقبهم ويعذبهم إن لم يشأ لهم الهدى ، وقد يرحمهم بأن يفتح صدورهم للإيمان ، ليفهم الجميع أن وظيفة النبي ﷺ ومن معه - ممن تبعه - تقتصر على البلاغ ، فهم

³⁵ (رواه الحاكم في صحيحه ج2 ص 80 رقم 2389 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج2 ص 507 رقم 853

³⁶ (رواه مسلم ج13 ص 424 رقم 5030

³⁷ (عون المعبود ج7 ص 165

³⁸ (تفسير الألوسي ج10 ص 485

³⁹ (رواه البخاري ج18 ص 479 رقم 5588

ليسوا وكلاء عن الله ، وليس لهم أن يحاسبوا الناس وينتقموا لأنفسهم ، قال أبو حيان (فكأنه أمر المؤمنين أن لا يخاشنوا الكفار في الدين ثم قال إنه أعلم بهم ورجاهم وخوفهم)⁴⁰.

المسألة السابعة : محاجة المشركين في عقيدتهم

قوله (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا) إشارة إلى ترك تعيين التفاضل بين الناس حتى وإن كان بين الأنبياء ، مع الإقرار بالفضل والأفضلية والتفضيل بينهم على سبيل الإجمال ، لكن الانشغال بهذه القضية لا يفيد ، وكذلك في حق الناس ، فالواجب ترك تصنيف الناس فلا يفيد الانشغال بتفضيل بعضهم على بعض ، فلا تدري لعل الله تعالى ينصر الدين بأحد المشركين الذين كانوا أعداء المسلمين بالأمس كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص

قوله (وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ) (55) فهذه العبارة توطئة لفهم فضل الله تعالى ، فهو سبحانه تفضل بالرسالة لنبيه محمد ﷺ واصطفاه من بين الخلق ، وكذلك فعل في الرسل من قبله اصطفاهم من بين زمانهم ، فإذا آن الأوان أن تتقلد أمة محمد مسئولية الخلافة بعدما نكث بنو إسرائيل عن حملها ، فلا بد وأن يعي الجميع أن هذه المسئولية وهذا الفضل يعطيه الله لمن يشاء من عباده ، فهو أعلم بمن هو أقدر على حملها ، ومن يضطلع بها ومن هو مؤهل لذلك ، ممن لو حُمل بها أضعاعها كمن حملوا التوراة ثم لم يحملوها ، بينهما أمة محمد حملت بالقرآن فقامت بهذا الواجب ، وبالرغم من هذا التفاضل فإن الانشغال بهذه القضية يؤول في النهاية إلى الحسد والتفاخر والرياء وهو منهى عنه .

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ بَيْنَمَا يَهُودِيٌّ يَعْزُضُ سِلْعَتَهُ أُعْطِيَ بِهَا شَيْئًا كَرِهَهُ فَقَالَ لَا وَالَّذِي اصْطَقَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ فَسَمِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَامَ فَلَطَمَ وَجْهَهُ وَقَالَ تَقُولُ وَالَّذِي اصْطَقَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا فَذَهَبَ إِلَيْهِ فَقَالَ أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّ لِي ذِمَّةً وَعَهْدًا فَمَا بَالُ فُلَانٍ لَطَمَ وَجْهِي فَقَالَ لَمْ لَطَمْتَ وَجْهَهُ فَذَكَرَهُ فَعَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى رُبِّي فِي وَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَائِ اللَّهِ)⁴¹.

قال ابن عاشور (هذا إعلام بأن بعض الرسل أفضل من بعض على وجه الإجمال ، وعدم تعيين الفاضل من المفضل: ذلك أن كل فريق اشتركوا في صفة خير لا يخلون من أن يكون بعضهم أفضل من بعض بما للبعض من صفات الكمال الزائدة على الصفة المشتركة بينهم، وفي تمييز صفات التفاضل غموض، وتطرق لتوقع الخطأ وعروض وليس ذلك بسهل على العقول المعرضة للغفلة والخطأ. فإذا كان التفضيل قد أنبأ به رب الجميع، ومن إليه التفضيل،

⁴⁰ (البحر المحيط ج7 ص 371)
⁴¹ (رواه البخاري ج 11 ص 222 رقم 3162)

فليس من قدر الناس أن يتصدوا لوضع الرسل في مراتبهم ، وحسبهم الوقوف عندما ينبئهم الله في كتابه أو على لسان رسوله⁴².

فمن نوازغ الشيطان أن يحمل كل قوم على أن يفاضلوا بين أصحابهم وأبنائهم ، حتى تقع الفتنة بينهم ، ولذلك نهى النبي ﷺ عن فعل ذلك في شأن الأنبياء رغم ما بينهم من تفاضل ، ففي الحديث السابق الإشارة إليه لما رُئي في وجه النبي ﷺ الغضب ثم قال "لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ" بين علة أخرى للنهي ، وذلك من تواضعه ﷺ فقال (فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ فَإِذَا مُوسَى آخِذٌ بِالْعَرْشِ فَلَا أَدْرِي أَحُوسِبُ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ أَمْ بُعِثَ قَبْلِي وَلَا أَقُولُ إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى)⁴³ أي أن نبي الله يونس ورغم ما فعله وقد أبق إلى الفلك المشحون كما عبر القرآن ، فإنه لا يجوز تفضيل نبي عليه ، وإن كان التفاضل بين الأنبياء حق ، لكن الأدب مع الأنبياء جميعا أحق .

قوله (وَأَتَيْنَا دَاوُودَ زَيْبُورًا)⁽⁵⁵⁾ تأكيد على أن التفاضل بين الأنبياء حاصل من وجوه عدة ، وضرب مثلا بذلك نبي الله داود حيث آتاه الله الزبور ، قال تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَآلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ) (سبأ/10)

فإنه رغم أن التفاضل حاصل من وجوه معينة إلا أنه لا يجوز للبشر أن ينشغلوا بهذه القضية ، ففي رواية (اسْتَبَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ فَقَالَ الْمُسْلِمُ وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى الْعَالَمِينَ فِي قَسَمٍ يُقْسَمُ بِهِ فَقَالَ الْيَهُودِيُّ وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْعَالَمِينَ)⁴⁴.

وداود عليه السلام نبي من بني إسرائيل وابنه سليمان الذي ملك مملكتي الإنس والجن ، ورغم ذلك فقد لعن الذين كفروا من بني إسرائيل ، فالعبرة ليست بشرف الانتساب ، وإنما بشرف الاتباع ، ولذلك يقول النبي ﷺ (وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ)⁴⁵

يتمحور سر اهتمام اليهود وتعظيمهم للملك داود (الذي هو نبي الله داود في الإسلام) حول أبعاد سياسية، ودينية، وقومية تشكل جوهر الهوية اليهودية. تتلخص أسباب هذا الاهتمام البالغ في النقاط التالية:-

• تأسيس "المملكة الموحدة" وعاصمتها القدس: يُعد داود في المنظور اليهودي الملك والرمز السياسي

الأبرز، فهو أول من نجح في توحيد أسباط بني إسرائيل الاثني عشر في مملكة واحدة قوية. كما أنه هو من اتخذ من أورشليم (القدس) عاصمة سياسية ودينية لهذه المملكة

⁴² (التحرير والتنوير ج2 ص 483)

⁴³ (رواه البخاري ج11 ص 222 رقم 3162)

⁴⁴ (رواه البخاري ج11 ص 212 رقم 3156)

⁴⁵ (رواه مسلم ج13 ص 212 رقم 4867)

- **سلالة "المسيّا" (المخلّص المنتظر):** يعتقد اليهود وفقاً لنصوص العهد القديم أن الله قطع عهداً أبدياً مع داود بأن العرش لن يزول من نسله. ومن هذا المنطلق، يؤمنون بأن "المسيّا" أو المخلّص المنتظر الذي سيجمع شتاتهم ويعيد أمجادهم يجب أن يكون من نسل داود حتماً، وهو ما يجعل شخصيته محورياً للرجاء القومي والديني لديهم⁴⁶.
- **كتابة السفر الروحي (المزامير):** (يُنسب إلى داود في التقليد اليهودي كتابة سفر "المزامير" (الزبور في الإسلام)، وهي الأناشيد والصلوات والترانيم الروحية التي تعد جزءاً أساسياً من العبادات والطقوس اليومية في الكنس اليهودية⁴⁷
- **التجهيز لبناء الهيكل:** على الرغم من أن ابنه سليمان هو من تولى بناء الهيكل (هيكل سليمان)، إلا أن اليهود ينسبون لداود الفضل في التخطيط له، وجمع المواد، واختيار الموقع، وإعداد الترتيبات الدينية لخدمة هذا المكان
- **الرمز القومي والسيادي:** تُربط الهوية القومية اليهودية المعاصرة برموز داود؛ وعلى رأسها "نجمة داود" التي ترمز لدولتهم وعلمهم، حيث يرى فيه الفكر الصهيوني واليهودي رمزاً للقوة العسكرية، والسيادة، والانتصار على الأعداء (مثل قصته الشهيرة في هزيمة جالوت) (جليات)

لكن ثمة فارق هام بين الرؤية الإسلامية واليهودية لنبي الله داود : ففي حين يوقر المسلمون داود باعتباره نبياً ورسولاً معصوماً، ينظر الفكر الديني اليهودي (الرسمي) إلى داود كملك وقائد تاريخي ملهم وصاحب نبوءة، لكنه ليس معصوماً من الخطأ؛ بل تنسب له الأسفار اليهودية المحرفة خطايا وأخطاء بشرية جسيمة لا تليق بمقام النبوة⁴⁸ واختيارهم لهذا النبي بالذات كقائد لهم يبين أنهم يركزون اهتمامهم على السلطة الزمنية كما أشار بذلك الشيخ الشعراوي في تفسيره ، بينما المسلمون يعمدون إلى اتباع النبي محمد ﷺ خاتم الأنبياء ويؤمنون برسول الله جميعاً ، ولهم في سيرتهم جميعاً أسوة حسنة ، ولذلك أكثر القرآن من ذكر قصصهم للاعتبار بها وأخذ الموعظة منها .

قوله (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا) (56) إذ لما اشتدت عداوة قريش للنبي ﷺ وأصحابه دعا عليهم ، فأصحابهم القحط والجذب ، وعن مسروق قال قال عَبْدُ اللَّهِ إِنَّمَا كَانَ هَذَا لِأَنَّ قُرَيْشًا لَمَّا اسْتَفْصَوْا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ دَعَا عَلَيْهِمْ بِسِنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ فَأَصَابَهُمْ قَحْطٌ وَجَهْدٌ حَتَّى أَكَلُوا الْعِظَامَ)⁴⁹.

وقد بكتهم القرآن ليدكرهم بالله تعالى ، هل أصنامكم وما تعبدون من دون الله قادرة على أن ترفع عنكم الضر الذي أصابكم أو تحوله عنكم ؟ فعن أبي هريرة أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرَّكْعَةِ الْآخِرَةِ يَقُولُ اللَّهُمَّ أَنْجِ عِيَاشَ بَنِ أَبِي رَبِيعَةَ اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بَنَ هِشَامٍ اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بَنَ الْوَلِيدِ اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا سِنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ غِفَارُ غَفَرَ اللَّهُ لَهَا وَأَسْلَمَ سَأَلَهَا اللَّهُ)⁵⁰.

46 (شاهين مكاريوس، تاريخ الإسرائيليين، دار ومكتبة بيبليون، بيروت، 2007، ص138-139

47 (راجع النسخة من خلال رابط راديو مريم <https://www.radiomariam.org/>

48 (هذا ما درسناه في الفرقة الأولى بكلية الحقوق من خلال تاريخ القانون والتشريعات القديمة ، ومنها كتب الدكتور صوفي أبو طالب ، والدكتور فتحي المرصفاوي ، وانظر كذلك موقع الدرر السنوية : موسوعة الأديان- الباب الثاني: اليهودية وما تفرع عنها - الفصل التاسع: وصف اليهود للأنبياء عليهم السلام في التوراة المحرفة - المبحث الخامس: داود عليه السلام

قوله (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ **مَحْذُورًا**) (57) استهجن القرآن عقيدة الكافرين في دعاء الله ، إذ لا يدعون الله مباشرة ، بل يلجئون إلى وسطاء في ظنهم أنهم يبلغون الدعاء لله ، من هنا اتخذوا هؤلاء الوسطاء آلهة مع الله ، فأضحوا يعبدون الله عن طريق عبادتهم للجن على أنهم ملائكة أو يعبدون الأنبياء للتقرب إلى الله بهم .

قال ابن عاشور (والابتغاء على هذا ابتغاء محبة ورغبة، كقوله: (فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا) [المزمل:19] وقريب من معناه قوله تعالى: (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ) [الانبياء:26]، فالسبيل على هذا المعنى مجاز عن التوسل إليه والسعي إلى مرضاته)⁵¹.

فيستنكر الله عليهم ذلك بقوله (أيهم أقرب) أي عبادتكم لله تعالى دون واسطة من ملك أو رسول أقرب ؟ أم عبادتكم له عن طريق تلك الوسائل التي لم يشرعها الله تعالى ؟

لا شك أن العبادة لله دون واسطة أقرب ، إذن لماذا تتخذون بينكم وبين الله واسطة ، وهو لم يأذن بذلك ، فهؤلاء الوسطاء هم كذلك أحوج إلى عبادة الله تعالى والتقرب إليه بالطاعات ، قال ابن القيم (والمعنى إن الذين تدعونهم من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين يتقربون إلى ربهم ويخافونه ويرجونهم فهم عبيده كما أنكم عبيده ، فلماذا تعبدونهم من دونه وأنتم وهم عبيد له)⁵².

قال ابن عاشور (الإلهية تقتضي عدم الاحتياج ، بينما ما تعبدون يفتقرون إلى الله ، فكان مآل قولكم إنهم عباد لله مكرمون عنده كاف في تفطنكم لفساد القول بإلهيتهم)⁵³

حتى أن الجن الذين كنتم تعبدون وتتخذونهم واسطة بينكم وبين الله دون أن تدروا قد أسلموا وحسن إسلامهم .

فَعَبَدَ عَبْدُ اللَّهِ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ) قَالَ كَانَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ أَسْلَمُوا وَكَانُوا يُعْبُدُونَ فَبَقِيَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ عَلَىٰ عِبَادَتِهِمْ وَقَدْ أَسْلَمَ النَّفَرُ مِنَ الْجِنِّ)⁵⁴ ، وكذلك الأنبياء فهم عباد الله ، ويتقربون إليه بالعمل الصالح .

قال ابن القيم (جمعت هذه الآية بين المقامات الثلاثة - مقامات السالكين جميعها وهي الخوف والرجاء والمحبة - فإن ابتغاء الوسيلة إليه هو التقرب إليه بحبه وفعل ما يحبه ثم يقول ويرجون رحمته ويخافون عذابه فذكر الحب والخوف والرجاء)⁵⁵ ، إذن هناك وسائل مشروعة للتقرب إلى الله ، وهي طاعته ، ووسائل غير مشروعة لم يأذن الله بها للتقرب إليه بها كدعاء الوسطاء ، ويمكن تلخيص المسألة كالتالي : -

أولاً: الوسائل المشروعة (التي أمر الله بها) : هي كل طاعة وقربة ثبتت في الشرع، وتُقرب العبد من ربه، ومنها:-

⁵¹ (التحرير والتنوير ج14 ص 90
⁵² (طريق الهجرتين ج1 ص 440
⁵³ (التحرير والتنوير ج14 ص 90
⁵⁴ (رواه مسلم ج14 ص 330 رقم 5356
⁵⁵ (طريق الهجرتين ج1 ص 440

- التوسل بأسماء الله الحسنى وصفاته: مثل قولك: "اللهم إني أسألك بأنك أنت الرحمن الرحيم أن ترحمني.
- التوسل بالأعمال الصالحة: أن يطلب العبد من الله إجابة دعائه بفضل عمل صالح أخلص فيه لله، مثل (بر الوالدين، أداء الأمانة، الصدقة)، كما في قصة أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة.
- التوسل بدعاء الرجل الصالح الحي: أن تذهب لشخص تُعرف فيه التقوى والصلاح وهو على قيد الحياة، وتطلب منه أن يدعو الله لك، كما كان الصحابة يطلبون من النبي ﷺ أن يدعو لهم.
- الالتزام بالفرائض والنوافل: مثل المحافظة على الصلوات الخمس، بر الوالدين، قراءة القرآن، وكثرة ذكر الله.

ثانياً: الوسائل غير المشروعة التي لم يأذن بها الله هي الوسائل لكن يعتقد أصحابها أنها تقربهم إلى الله، لكنها تفضي إلى البدع أو الشرك، ومنها:-

- دعاء الموتى والغائبين (دعاء الوسطاء) كمن يذهب إلى قبر نبي أو رجل صالح فيقول: "يا فلان اشفع لي عند الله" أو "اقض حاجتي"، وهذا هو عين ما كان يفعله أهل الجاهلية الذين قال الله عنهم: (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)
- التوسل بجاه أو بركة الأشخاص: مثل قول: "اللهم إني أسألك بجاه فلان أو بحق فلان أن تغفر لي"، فهذا لم يرد في الشرع لأن جاه العبد لمنفعته هو ولا يملك العبد أن يجعله وسيلة لدعاء غيره.
- العبادات المبتدعة: التقرب إلى الله بعبادات وأذكار وطقوس لم يشرعها النبي ﷺ ولم يفعلها الصحابة، مثل إحداث مواسم وأعياد دينية لم يأذن بها الله. كالموالد والحضرة.. الخ
- التمسح بالقبور والأعتاب: التبرك بأحجار القبور، أو جدرانها، أو الطواف حولها تقرباً لأصحابها، فكل هذا من المحدثات والوسائل غير المشروعة.